حول: المغامرات اللغوية

الأستاذ عبد الحق فاضل

(المغرب الاقصى)

اشكر قبل كل شيء للاستاذ ذنون ايوب ثناءه على شخصي قبل ان يتطرق الى نقد كتابي «مغامرات لغوية» . وعلمي بأنه ضنين بالثناء على احد دون اقتناع كاد يجعلني اصدق بأني مستأهل للكلمات الاخوية الطيبة التى قالها عني .

وكان بودي أن اتحدث فى جوابي هذا عن مكانة ذنون ايوب اديبا وقصاصا ، وعن مساهمته المأثورة بقصصه ومقالاته فى مكافحة الفساد والتردي الاجتماعي والسياسي منذ اواخر الثلاثينيات مما لا يزال يتردد صداه فى نفوس الذين زامنوا ذلك العهد . لكني خشيت اذا انا تبسطت فى ذلك ان يقول القاريء انهما يتمادحان بالمقايضة فلا مناص لنا اذن من السكوت على ثنائه والاجابة على نقده وحده . وحسبنا هذا التنويه اليسير .

ونقده يتناول بعض امور فرعية لو اقتصر عليها لأثرت السكوت عنها ايضا . لكنه تناول كذلك الامر الاساسي الجوهري فى الكتاب وهو نظريتي القائلة بأن العربية هي أم اللغات الآرية بالاضافة الى الحامية والسامية . وهي نظرية توصلت اليها بمقارنة بعض الحقائق من تاريخية وجغرافية ولغوية . وساكتفي هنا باستعراض الحقائق اللغوية ، اما الباقي فقد اوضحته فى الكتاب المذكور ولا ارى حاجة الى الاعادة فيه .

واود قبل الخوض فى الموضوع ان اسجل تقديري للروح العلمية التى حدت بالاستاذ الناقد الى انكار نظريتي هذه ولو ان ذلك ضد اللغة العربية التى هو مكبر لشأنها محب لها ولاهلها الذين هم قومه واهله .

وواقع الامر اني انا الآخر لم اقل ان العربية ام اللغات الآرية والحامية والسامية وان الشعب العربي ابو الآريين والحاميين والساميين وان الجزيرة العربية وطنهم الاول جميعا ـ بدافع من مباهاة قومية او عصبية من اي نوع ، فقد كنت اتوهم اول الامر ان العربية التى تبدو كأنها حديثة عهد بالتحضر والتثقف كانت عالة على اللغات المتحضرة القديمة من اغريقية ولاتينية وسنسكريتية وفارسية، وان وجود الالفاظ المشتركة بين العربية وهاته اللغات لم يكن يعني الا ان العربية اقتبستها واغتنت بها . لكني بعد البحث والمقارنة اكتشفت فى العربية اصول الكثير من الفاظ اللغات الآرية كما اكتشفت ان الالفاظ العربية يمكن ارجاعها بوجه عام الى اصولها الصوتية الاولى ، فى العربية نفسها ـ مما هداني الى وضع علم « الترسيس » اللغوي ، الذى المع اليه ناقدنا المفضال . ولا اتحرج من القول ان البحث لو كان اظهر لي ان ام تلك اللغات جميعا هي السنغالية او الانكليزية او اليابانية لما ترددت فى اعلان ذلك بنفس الحماس الذى اعلنت فيه امومة العربية .

واهل النظريات الجديدة متحمسون دائما لنظرياتهم .. لكن نرجو ملاحظة الفرق الشاسع بين التحمس والتعصب .

قال الاستاذ ذنون اني اكاد اكون مبتكر العلمين اللغويين : التأثيل والترسيس . والحق اني مكتشف احدهما فقط . فأما التأثيل فعلم لغوي معروف عند الاوربيين واسمه بالانكليزية etymolog وقد ترجمه بعض اللغويين العرب « علم اصول الالفاظ » . لكني وجدت هذا الاسم طويلا فاقترحت تسميته علم « التأثيل » باعتبار ان الاثلة في المعجم تعني الاصل ، فانا مسؤول عن تسميته العربية وحسب . ووظيفة هذا العلم هي اعادة الفاظ اللغة الى اصل سابق لها ، فالالفاظ الانكليزية مثلا يبحثون عن اثل كل واحدة منها فيجدونه في بعض اللغات الحديثة كالفرنسية والسويدية وغيرهما ، او في احدى اللغات القديمة وهي على الاغلب السكسونية او الكلتية او اللاتينية او الاغريقية او السنسكريتية . وهم يقفون عند هذا الحد لانهم لا يعرفون الاثول التي جاءت منها الفاظ هذه اللغات .

واما العلم اللغوي الذي انا مسؤول عن وضعه وتسميته معا فهو علم « الترسيس » الذي يعود باللفظة التي رسمها الاول اي بدايتها الصوتية التي نطق بها اول انسان نطق بها تقليدا لاحد الاصوات المسموعة ، مثل محاكاة صوت انريح (هووو) ، وصوت الفروج (صي صي صي) ، وصوت الصفير (صف) ، وهكذا .. وعلى ذلك تناولنا بعض الالفاظ الانكليزية التي بحثوا عن اصولها فوجدوها ترجع الى الفاظ بعض تلك اللغات ووقفوا عندها . فهذا قصارى ما يستطيعه علم التأثيل (etymology) .

لكن علم الترسيس لا يقف عند حد حتى يصل الى الصوت الاول المحكي . وعلى هذا مضينا في البحث عن اثول تلك الالفاظ الكلتية واللاتينية والاغريقية .. فوجدنا في العربية اثولها وارساسها.

فمثلا كلمة aquarium (حوض المائيات ، بالانكليزية) اعدناه الى صوت هبوب الريح (هووو)، و top (قمة) وجدناها ترجع الى الكلمة الكنعانية طاو (كرة) وهذه من (طوى) وهذه من قول ابن الغابة (طو) تعبيرا عن صوت انكسار غصن او عصا دون انفصال احد الطرفين عن الآخر ، و calcium (كلس) رسمناها من صوت القطع (قط) .. وهكذا .

وقد اقترحنا على الانكليزية والفرنسية تسمية علم الترسيس (radixation) باعتبار ان radix تعني سنخ الشيء ولاسيما اللفظة اللغوية، وهي من اللاتينية بمعناها ومبناها . لكن بلغنا ان المستشرق الفرنسي الكبير جاك بيرك ، الاستاذ بالسوربون ، اخذ يسمي الترسيس بالفرنسية (racinisme) ، اي من نفس مادة (الرس) العربية ، ومعناها : التجذير .

اما قول الاستاذ ذنون ان لغلغة الطفل (لغ لغ) قد يرجع تاريخها الى نصف مليون سنة ، فان الرأي الذي يكاد يتفق عليه الباحثون ان الانسان ظهر على هذه الارض ـ كانسان بشكله الحاضر ـ قبل نحو مئة الف سنة ، كما ذكر هو ايضا . والظاهر ان الانسان لم يتوصل الى التخاطب بلغة الالفاظ الا بعد ذلك بعهد طويل . ومن المستبعد ان يكون قد اخترع اللغة قبل ان يصبح انسانا ببضعة آلوف من القرون ، ولاسيما ان بعض قبائل البشر لم تتوصل الى اللغة بمعناها الصحيح الى اليوم ، او الى مطالع هذا القرن على الاقل ، حيث كان بعضها يتفاهم بالاشارات ، وبعضها باصوات اشبه باصوات الحيوانات ، مما لا يمكن تسميته لغة .

وهنا يتساءل الاستاذ ذنون : « فاين كانت العربية يومذاك » ؟

ان الشعب الذي انشأ هذه اللغة منذ بدايتها الصوتية الساذجة هو نفس الشعب الذي صنع المعلقات بعد عشرات القرون على كل حال ، ولو ان تسميته (عربيا) حديثة العهد . ولا بأس علينا ان نسميه عربيا من باب الاختصار بدلا من تسميته العلمية الدقيقة (الساكن الاقدم لشبه الجزيرة التي تسمى الآن جزيرة العرب) .

ولا بأس علينا كذلك ان نسمي لغته (العربية) ولو انها كانت يومئذ في طفولتها الاولى ولم تكن قد سميت بالعربية مد . وقد جرى العلماء على هذا الغرار في تسمية المواقع الاثرية القديمة باسمائها الحاضرة ، فهم يسمون عصر (فجر السلالات) في العراق مثلا باسم الموقع المتواضع الحديث الذي اكتشفوا فيه آثاره والذي يدعوه العامة « جمدة نصر » . وكذلك انسان (جاوة) وانسان (نياندرتال) وغيرهما قد سموا بالاسماء التي تطلق الآن على تلك المواقع ولو لم تكن تلك الاسماء قد ظهرت في تلك التواريخ القديمة السحيقة . على اننا كثيرا ما اطلقنا

اسم (الاعربين) على قدامى العرب و (المعربة) على الجزيرة العربية اختصارا .

وقلنا فى كتابنا « مغامرات لغوية » ان العرب صاغوا فعل (صأي الفرخ) من صوت الفروج (صي صي صي) ، ثم اشتقوا صاء وصاح وصات ... الخ ، وان بعض المشتقات العربية انتقلت الى اللغات الاوربية . ويرى الاستاذ ذنون أن ذلك الصوت لم يكن تقليدا لصوت فرخ الدجاجة بل لصوت البلبل والعصافير ، لان « الدجاج قد دخل فى حياة الانسان مستأنسا بعد وجود العصافير والبلابل وغيرها فى الغاب بعشرات الالوف من السنين » .

وجوابنا على هذا هو ان الانسان الاعرب الذى اخترع لغته بمحاكاة الاصوات المسموعة منذ عهد بعيد لا يمكننا تحديده ، لم يتوقف فى أي عهد من العهود عن خلق الفاظ جديدة كلما سمع أصواتا جديدة . وظهور الدجاج حديثا فى حياته لم يمنع اذنه الموسيقية المرهفة العجيبة من استخدام اصواتها مادة خامة لصنع الفاظ مستحدثة . واذا كان ثمة مجال للشك فى حداثة قولهم (صأي الفرخ) فلا سبيل الى أي شك فى حداثة قولهم (صـج) أي : ضرب حديدا على حديد فصوتا . فهذه الكلمة الصوتية الرسية من مخلوقات العهد الحديدي، ويجوز فقط ان نعتبرها اقدم من ذلك اذا قلنا انهم صاغوها فى العهد النحاسي ثم انتقل المعنى من النحاس الى الحديد . لكنها لا يمكن بوجه من الوجوه أن تكون اقدم من ذلك ، لانه ما من مادة غير معدنية يمكن اذا ضربت بمثلها ان تحدث صوت (صج) . ومن ثم فهي احدث من العهد الحجري قطعا .

ومثل ذلك يمكن ان يقال فى فعل (قط) الذى قلدوا به صوت قطع عصا مثلا بضربة فأس . فلا يمكن صنع اداة من الحجر لها هذا المضاء وهذه القوة التى تقطع بضربة واحدة وتحدث صوت (قط) .

وانما قلنا ان (صي صي صي) هو صوت الفروج لانه لا يشبه صوت فرخ اي طائر آخر نعرفه. ومن شدة شبه (صي صي صي) بصوت فرخ الدجاجة ان بعض عرب الشرق الاوسط ما زالوا يسمون الفروج فى دارجاتهم (صوصي) .

وثمة برهان اقطع من هذا ينبيء ان حداثة عهد الدجاج بمعايشة الانسان لم تمنع الاعربين من استخدام صوته فى تكوين لغتهم واستكمالها ، هو انهم اصطنعوا كلمة اخرى من صوت نفس فروجنا العتيد . ذلك ان بعضهم ترجموا صوته الى (جو جو جو) عدا اولئك الذين قلنا انهم ترجموه الى (صي صي صي) . ويدلنا الاستقراء الترسيمي ان هؤلاء سموا فرخ الدجاجة اول الامر (جوجو) ، ثم (جوجة). وقد انتقلت هذه الصيغة الاخيرة (جوجة) الى الفارسية بنفس لفظها ومعناها . ثم همز العرب اسم الجوجو فنطقوه (الجؤجؤ) مثل صنيعهم فى نطق البؤبؤ واللؤلؤ . ثم انهم اطلقوا الجؤجؤ على الدجاجة بعد ان كانوا اطلقوه على فرخها ، ومثل ذلك يطلق المصريون بالدارجة اليوم اسم (الفرخة) على الدجاجة و (الفراخ) على الدجاج . ثم اطلق الاعربون اسم (الجؤجؤ) على مقدم السفينة اي صدرها لمشابهته صدر الدجاجة . ثم انهم عادوا فاطلقوا الجؤجؤ على صدر الدجاجة ايضا بعد ان كانوا يطلقونه على الدجاجة كلها ـ من باب تسمية الجزء بالكل .

ودليلنا على ان الدجاجة كانت تسمى جوجة هو ان السوريين وبعض العراقيين ما زالوا يسمونها (جاجة) وجمعها (جاج) ! لكن بعض قدامى العرب حرفوا الكلمة فصدروها بالدال فصارت دجاجة . وهذه الصيغة التى كانت تعد عند ظهورها محرفة ومولدة هي التى انحدرت الينا فى الفصحى . اعني اننا اذا اعتبرنا الاقدم الاعرق هو الافصح فان (جاجة) اقدم وافصح من (دجاجة) . وترسيمها على كل حال هكذا : الدجاجة ـ الجاجة ـ الجوجة الجؤجؤ ـ الجوجو ـ جوجوجو .

ولم يكتف الاعربون باستيلاد صوت الفروج هذين التواميـن ـ وربما كان يوجد غيرهما مما لا يحضرنا الآن ـ بل انهم استولدوا صوت امه ايضا ـ الدجاجة . فمن قولها (نق نق نق) وهي تلقط طعامها قالوا (نقت الدجاجة) اي صوتت . ومن التقاطها الطعام اثناء نقيقها ظهر فعل : نقر . ومنه نقد بمعنى واحد ، فالمنقاد هو المنقار .. وما زالوا فى الموصل يسمون القلم الحديد الذى يستعمله الحجار فى ثقب المرمر أو نقشه (المنقار) ، ويسمون الحجار الذى يعمل فى تسوية الرخام وتشكيله لاغراض البناء (النقار) . وقديما ظهرت من النقار صيغة (النجار) التى تخصصت بنقار الخشب .

كذلك ظهرت من نقيق الدجاجة صيغ مثل : نقب (ومنها ثقب) ونقش ونقح ونقخ ونقت ونقث ونقى ... ومن فعل (نقب) نشأت صيغ : نخب ونخر ونخرب وخرب وخروب ...

ومعلوم انهم استعملوا فعل (نقد) لفحص الدرهم الفضة لانهم كانوا ينقرونه على قطعة معدن ليتبينوا من رنينه صحته من زيفه . ثم انتقل المعنى من عالم الصيرفة الى عالم الفن والثقافة ، حتى صارت الكلمة تطلق على بحث قيم مثل (نقد) الاستاذ ذنون لكتابنا (المنقود) .

حداثة ظهور الدجاج فى حياة الانسان وحداثة ظهور المعادن لم تقف حائلا اذن دون الاستمرار فى التوليد اللغوي عند الاعربين .

ومن صأي الفرخ ونقيق الدجاجة وصج المعدن وقطع العصا ، نستفيد شيئا ، هو ان ملابسات الالفاظ اللغوية تدلنا احيانا على تاريخ ظهورها ولو بوجه التقريب ، او تدلنا على الحد الاقصى او الادنى لذلك التاريخ ، وقد نوهنا بذلك عند كلامنا على (صج) و (قط) فى كتابنا .

وتأتي الآن الى النقطة الرئيسية فى نقد الاستاذ ذنون ايوب . وهي القول بأن لغات قاع البحر المتوسط وما يحيط به قد بقيت ترسباتها فى لغات البربر والطوارق . والعرب ، وان العربية منقولة من ذلك المكان ، فهذا تأويل مقبول لوجود الشبه بين عدد كبير من اللغات ـ اي مجموعة اللغات الآرية والحامية والسامية ـ تأويل مقبول الى ما قبل ظهور علم الترسيس . ولو كانت اللغة العربية قد انقرضت لكان من العسير ان نجد تأويلا معقولا آخر له هذه الوجاهة . لكن العجيب ان العلماء المحدثين من شرقيين وغربيين مع انهم اشادوا ما شاؤوا بثراء هذه العربية ودهشوا له لم يخطر لهم ان يستثمروا هذا الاندهاش وذاك الثراء فى حل المشاكل اللغوية العالمية . ان اللغة العربية تخبرهم بأوضح منطق كيف نشأ الكثير من الفاظ هذه اللغات واحدة واحدة . وبالرغم من ضياع عدة كبيرة من مفردات العربية لم يزل فيها ما يكفي للاقناع العلمي . ان اكتشاف علم الترسيس انما يعني اكتشاف (وجود) اللغة العربية .. مثل اكتشاف نجمة سينمائية . انها كانت موجودة من قبل ومعجبا بجمالها بين المعارف لكنها لم تكن قد اوقفت امام المصورة لتعرض من بعد بجمالها ومواهبها على الدنيا .

ان استقراء العربية ولو فى النطاق المحدود الذى استعرضنا فيه بعض الالفاظ فى « علم الترسيس » يوضح بصورة لا تقبل ترددا ان هذه اللغة قد نشأت فى موطنها وعلى السنة اهلها ، ولا يمكن ان تكون قد استجلبت مع جذورها من موطن آخر . لكن الانتقال الذي حصل فعلا هو انتقال ثمارها الى مواطن اخرى .

فبعد ان اكتشفنا المنجم الواقعي الغني لا يجوز لنا ان نتركه لنبحث عن موطن المعدن النفيس فى ارض اخرى مجهولة ، قد غمرها البحر ، وهي بعد مشكوك فى امر وجودها اصلا ، ولا علم لنا على كل حال بأي شيء واقعي يقيني عنها .

هذا بالاضافة الى ان تشابه هذه اللغات الواقعة على شطئان البحر المتوسط لا يقتصر على هذه المنطقة بل يمتد الى الافغان ، والى الهند ، بل الى اقاصي الصين ، وقد رسمنا ـ فى كتابنا المنقود ـ الضمائر الصينية من الضمائر العربية البدائية الاولى .

اننا نتفق مع الاستاذ ذنون على ان لغة قاع المتوسط ربما كانت قد خلفت آثارا فى لغات الاقطار المجاورة لها ، واحرى بذلك ان يكون فى الاقطار الواقعة على سواحل هذا البحر . لكننا لا نجد فى السواحل الاوربية لغة تحتوي على كل الاصول والفروع . اما الشمال الافريقي فلغاته البربرية محدودة نسبيا لعزلتها فى الجبال ، ولم اجد لها معجما يساعد على درسها ، وهي على العموم لغات قبلية يختلف بعضها عن بعض ، وهي الكتلة الكبرى من اللغات الحامية . لكنها كالآريات لا تعتبر غزيرة المادة اذا هي قيست بالعربية .

ولما كانت الضمائر نواة اللغة واقدر الفاظها على البقاء ومقاومة عوامل التغير والفناء ، فقد درسنا ضمائر بعض القبائل البربرية فوجدناها ترجع عند تحليلها الى اثول الضمائر العربية القدمى . وهي ـ الضمائر البربرية ـ ليست ابعد عن الام العربية من الضمائر البابلية مثلا . اما فى العربية فقد كنا درسنا ـ فى كتابنا المذكور ـ تطور تلك الضمائر العربية ابتداء من الاصوات الطبيعية الاولى الى ان صارت لها معانيها اللغوية الدالة على مختلف الاشخاص : انا ، نحن ، انت ، انتم ، هو ، هي ..

ولو كانت الالفاظ التى نستطيع ان نعيدها الى ارسالها قليلة فى العربية لامكن القول باحتمال

انتقالها من مكان آخر ، لكن معظم الالفاظ العربية ، وكثيرا من الألفاظ الآرية ، يمكن اعادتها الى ارساسها البديئة فى العربية نفسها . وهي مزية لا تملكها أية لغة سواها .

ان الحقيقة الواقعية التى يحسن ايرادها هنا من واقع التاريخ هي ان الهجرة تضيع على رهط المهاجرين بعض خصائص لغتهم الاولى ولاسيما جذورها الصوتية البديئة . نرى ذلك واضحا فى اللغات السامية اي اللغات القديمة فى الهلال الخصيب : البابلية ، الآشورية ، الكنعانية ، الأرمية . . فبالرغم من قرب اهل هاته اللغات من الجزيرة العربية ، بل اقامتهم على تخوم بادية الشام التى هي امتداد للدهناء ، وبالرغم من عدم انقطاع الصلة بينهم وبين العرب الرحل الذين كانوا ـ وما زالوا ـ يتنقلون على تخوم تلك الصحراء ، وبالرغم من انضمام ارهاط عربية مهاجرة بين حين وآخر الى المهاجرين السابقين الذين استوطنوا مناطق الهلال الخصيب ـ بالرغم من كل هذه العوامل التى تساعد على احتفاظ المهاجرين باللغة الام وتجديد الصلة بها ـ لا نجد بين هاته اللغات السامية اية واحدة قد استطاعت التمسك بكل مقومات العربية واثول الفاظها ، بله ارساسها . فلهذا ليس فى مقدورنا ان نسمي اية واحدة منها باكثر من انها جزء محرف من اللغة العربية . ولا تستطيع اية واحدة منها ان تنهض بمعشار ما تنهض به العربية من مهمة الترسيس . بل انها هي التى تبحث عن اثولها وارساسها فى العربية .

هذا الواقع التاريخي الملموس يمنعنا من القول ان اللغة العربية نشأت فى غير موطنها ، وان هذه الدوحة الهائلة قد نقلت بكل جذورها العميقة المتشابكة البعيدة الغور وبكل فروعها الكثيرة المديدة الذاهبة فى كل اتجاه ـ من قاع البحر المتوسط ، كل تلك المسافة ، الى قلب الجزيرة العربية .

ان اللفظة الرسية ـ البديئة ـ كثيرا ما تتطور فى خط متعرج طويل تتحكم فى رسمه البيئة ومصادفات الظروف . ومن النادر وربما من المحال ان تتطور فى نفس الخط المتعرج الطويل فى بيئة اخرى . كالماء تصبه فى مكان من الارض فيتخذ مجرى لا يشبه مجرى ماء تصبه فى مكان آخر ، فما على الخريطة الارضية نهران متشابهان تماما . ومن هنا كان اختلاف اللغات . لان الالفاظ الرسية ، اي المقلدة لاحد الاصوات ، كثيرا ما تكون متشابهة عند مختلف الامم . اي ان الانسان العربي ليس وحده الذى يحكي صوت هبوب الريح بقوله (هوووو) ، وانما هذا شان كل البشر . ثم ياخذ التطور مجراه الخاص فى كل لغة على اسلوب يختلف عن سواه .

وفى اللغة العربية وحدها تطورت (هوووو) الى (ريف) على هذا النسق : هوووو ـ الهو ـ الهواء ـ الهباء ـ الهباب ـ الأباب ـ آب ـ آل ـ رال ـ راف ، ريف . . . كالذي اوضحناه فى كتابنا . ثم اذا بنا نجد هذه الكلمة الاخيرة ـ الريف ـ فى اللاتينية بصورة (ripa) بنفس معنى الريف اي الساحل ، ثم بصيغة اقرب الى العربية هي (rive) بالفرنسية بمعنى الشاطيء .

فلا يمكن ان تكون كلمة (ريف) قد نشأت من صوت هبوب الريح فى لغة غير العربية بنفس خط السير هذا المديد المتعرج المعقد ، الذى سلكته فى العربية . وكذلك القول فى كلمات اخرى استعرضناها فى كتابنا المذكور وارجعناها الى ارساسها العربية .

المعروف أن اللغات البدائية هي التى يقرب الشبه بين الفاظها والاصوات الطبيعية التى نشأت منها . أما اللغات الراقية فقد ذهبت اصولها وبقيت الكلمات الحضارية الراقية التى تولدت منها . ولاسيما ان الامم المتحضرة قد تنقلت منذ اقدم العصور من مكان الى مكان واختلطت لغاتها بغيرها . لكن العربية وحدها تقدم لنا ارقى الكلمات الحضارية والثقافية مع الحلقات المتسلسلة التى تقودنا الى البدايات الاولى . وسبب ذلك هو الظروف الفريدة التى تلابس الجزيرة العربية ، فقد بقي وسطها الرملي المجدب محافظا على حياة البداوة والبدائية على حين راحت اطرافها المتحضرة تصنع من تلك الخامة اللغوية مفردات حضارية باذخة ، واذا بهذه العربية تغدو لغة الراعي والفيلسوف فى وقت واحد. وقد اوردنا فى كتابنا المذكور نماذج كثيرة من الالفاظ الحضرية التى تكونت من الفاظ حيوانية ، والالفاظ الثقافية التى اصلها اربطة البهائم من ثبات وعنان وعقال ، مما تصدى لذكر بعضه الاستاذ الناقد .

وطبيعة الصحراء الفقيرة الشحيحة تدفع سكانها الى الخروج منها لكنها لا تغري احدا بالدخول فيها . فهي اشبه بالمضخة الكابسة ، تمج

ولا تمص . وما اكثر الظروف التى طردت فيها سكانها الى مختلف الانحاء كلما زاد عديدهم عن طاقة مراعيهم ، او شحت ارضهم ولو لم يزد سكانها ، او احتربوا فاجلى بعضهم بعضا عن ديارهم .

وعدم دخول الاجانب الى هذه الصحراء يعني بقاء لغة العرب للعرب ، ويعني ان تطورها قد جرى على السنتهم وحدهم دون ان تخالطها لغات اخرى . وخروجهم من جزيرتهم الى الانحاء يعني توزيع لغتهم على جيرانهم وجيران جيرانهم وسكان كل ارض قريبة او بعيدة يحلونها . ومن ثم كانت الالفاظ الدخيلة فى العربية الجاهلية قليلة ، فأكثر الدخيل من مقتبسات عهد التحضر الاسلامي .

وحقيقة اخرى . يقرر العلماء ان اللغة البشرية تكونت من اصول خمسة بوجه العموم ، نجدها كلها صريحة واضحة فى العربية ، على حين ان اية لغة حية اخرى لا توجد فيها الا بعض هذه الاصول ، ان وجدت . والواقع انهم انما توصلوا الى هذه الاصول الخمسة من استقراء عدد غير قليل من اللغات البدائية التى لا تزال تحتفظ بجذورها الصوتية لعدم ارتقائها وابتعادها عن صورة ولادتها . وهذه الاصول الخمسة هي :

1 ـ محاكاة اصوات الطبيعة . ونذكر كمثال على ذلك صوت الهواء الذى مر بنا حديثه ، والذي انجب الفاظا كثيرة اخرى لم يتسع لها المجال هنا مما ذكرناه فى كتابنا ، وكلمات كثيرة اخرى لم يتسع لها المجال فى ذلك الكتاب ايضا . وكمثل آخر جديد نذكر صوت الماء : شلشل ، ومنه ترشرش الماء ، ثم رش ورشاش ، ثم رذ ورذاذ ، ثم ذر وذري ومذراة .. وذرة ..

2 ـ تقليد اصوات الحيوانات ، ومن ذلك صوت الفروج الذى مر بنا حديثه ، وصوت الدجاجة امه . ونذكر كذلك من الحيوانات التى سميت باصواتها : البلبل ، والقرة (الضفدع) ، والقاق (الوز العراقي) ، والوقوق (المسمى طائر الكوكو) ، والغاق (الغراب) ، واللقلق ، والجدجد ، والصرصر ، والجحش (من صوت شحيجه) .. وما الى ذلك مما لا يوجد كله فى اية لغة اخرى .

3 ـ تقليد الاصوات المصطنعة ، اي الاصوات التى يحدثها الانسان فى بعض اعماله مثل صوت القطع (قط) الذى تحدثنا عنه بشيء من التفصيل فى العدد الثامن من « اللسان العربي » بعنوان « قط وبناتها » وقلنا انه تكونت منه الوف الالفاظ العربية ، وتسرب بعضها الى اللغات الاجنبية . ومثل ذلك فعل (صج) الذى تحدثنا عنه فى « المغامرات » ضمن علم الترسيس ، وفى عدد سابق من « اللسان العربي » . نضيف الى ذلك هنا : دق وطق وقلقل وبقبق ...

4 ـ تقليد الانسان لنفسه ، فى الاصوات الطبيعية التى تصدر عنه تلقائيا فى مختلف حالاته ، مثل : قهقه ، قاء ، ان ، عطس (اثلها اطس) وهي فى الفرنسية tosse (سعال) ...

5 ـ تقليد اصوات الطفل ، مثل : لغ لغ ، بابا ، تاتا ، دادا ، ماما ... وقد تحدثنا عنها فى « المغامرات » فلا حاجة الى الاعادة .

فهذه لغة عصامية كونت نفسها بنفسها دون اعتماد على سواها .

لكن كل هذا وكل الدلائل الاستقرائية الاخرى التى تنبيء ان هذه اللغة قد نشأت فى موطنها ولم تستورد من صقع آخر ، لا تخبرنا من اين جاء اسلاف العرب الاوائل وسكنوا تلك الجزيرة فى عهدها المخصاب . وذلك امر لم ابحث عنه ولا اهمني امره فى بحوثي لانه خارج عن الموضوع اللغوي ، ولان كل ما يقول فيه العلماء رجم بغيوب ، واستنتاجات يذهب كل من الباحثين مذهبه فيها ، لفقدان الادلة العلمية القاطعة او شبه القاطعة . لكن الواضح ان اولئك الاعربين الاولين قد وجدوا فى المعربة قبل تكون اللغة ، لانهم لو كانوا قد جاؤوا من مكان آخر ناطقين لتغيرت لغتهم بتغير البيئة ولضاعت اصولها الرسية ، على نحو ما اصاب اللغات السامية وهي اقرب اللغات الى العربية نسبا وموطنا واكثرها بها شبها . هذا ان لم يكونوا قد تطوروا ودخلوا المرحلة البشرية فى معربتهم نفسها ـ على راي بعض العلماء .

وحقيقة اخرى . ان الضمائر من اقدم العناصر التى تتكون منها اللغة ، ان لم تكن اقدمها طرا . وقد استعرضنا فى « المغامرات » فى فصل « اسرار الضمائر » كيف تكونت الضمائر واسماء الاشارة فى العربية والآريات من العناصر الثلاثة الاولية (آ ، نا ، تا) منذ نطق بها الآدمي الاقدم ، ورأينا تطورها فى تلك الطرق المتسلسلة والمتشابكة خطوة خطوة . ونجد فى العربية مختلف الاستعمالات

والمعاني التى ظهـرت فيها تلـك الضمائـر . اما فى الساميات والحاميات والآريات فلا توجد الا بعـض تلك الضمائر تؤدي معانيها الحاضرة ، ولا يمكن فى اية لغة منها تتبع المعاني السابقة للضمائر ولا لصور المباني التى انتهت اليها . فكلمة (اتـا atta) تعني انت بالبابلية ، و (ايـا ـ ea) تعنـي هي باللاتينية ، و (نويي ـ noi) : نحن بالايطالية ، و (تـو ـ tu) : انت بالفرنسيـة ، و (هـي ـ he) هو بالانكليزية .. وهكذا . كيف تكونت هذه الضمائر؟ جواب ذلك عند علـم الترسيـس الذى يقـول انها تكونت فى العربية . هذا عدا اسماء الاشارة وحروف الجر وغيرها من الادوات والرواسن (التى تسبـق الكلمة فى اللغات الآرية) والكواسـع (التـى تتلـو الكلمة فيها) .

وبالاضافة الى ان الضمائـر من اول ما يتكـون من مفردات اللغة اثبت الاستقراء انها آخرها ذوبانا وزوالا . فاذا تسلطت امة على اخـرى واكتسحـت لغتهـا فان الفـاظ اللغة المقهورة تزول بالتدريـج ، وتكون الضمائر دائما آخـر ما يزول منها ، وقد لا تزول ابدا . فوجود الضمائر العربية فى اية لغـة دليل لا يمكن اغفاله على ان اصحابهـا كانت لغتهـم الاولى هي العربية .

ومهما يكن ..

حتى لو افترضنا ان من المحتمـل تخمينـا ان تكون اللغة العربية مستوردة من الخارج ، فما الذى يدعونا الى الاخذ بالاحتمال التخميني الظني ، وترك الواقع الناطق الواضح ؟

واخرى تحبونهـا ..

هي ان ظهور السكنيات الزراعية قبـل نحـو عشرة آلاف عام فى وقت واحد تقريبـا فى العراق وفلسطين له دلالته الخطيرة . ولعل تفسيـر هـذه الدلالة الخطيرة هو أن حياة الاستقرار الزراعي كانت قد بدات قبل ذلك فى المعربة ثم هاجرت طائفة من العرب شمالا فاستأنفوا حياتهـم الزراعيـة حيـث استقر بعضهم فى العراق وبعضهـم فى سوريـة . وربما ستكتشف آثار سكنية من ذلـك العهـد فى مناطق اخرى من الشرق الاوسط ، او غيره .

والمعلومات الفلكية ، الموغلة فى القـدم ، التى نقلها المهاجـر الاعـرب الى ارض الرافديـن ووادي النيل ـ مما تطرقنا اليه فى فصل آخر ـ تدل على انه كانت للانسان الاعرب ثقافته الكونية ، المسجلة فى لغته ، التى لا يمكن ان تكون لغة رعاة وحسب .

فهل بدأ التحضر البشري فى المعربة ؟ .